الفصل الرابع

البحث والالتزام المنهجى

المبحث الأول: خصائص البحث وأسس الاختيار.

المبحث الثاني: موضوع البحث.

المبحث الثالث : البحث وخطوات المنهج.

المبحث الرابع: خطة البحث.

المبحث الخامس: مصادرالبحث ومراجعه.

oberkandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول
خصائص البحث وأسس الاختيار

فى حقل الدراسات الأدبية يصعب اختيار موضوع البحث، ربما بسبب كثرة الموضوعات التى طرقت، وربما تظل تعددية المناهج مدخلا إلى جدة المعالجة، وفتح مساحة من الإضافة والتجويد مع إمكانة الوصول إلى نتائج جديدة.

وفى عالم البحث الأدبى تتمثل خصائصه الفارقة والمحددة لأبعاده وتميزه ربما لارتباطه بالخيال وملكات التصوير فى تحليل الظاهرة الإبداعية، وربما فى تدفق المادة اللفظية والتصويرية ناطقة بخلاصة التجارب والمواقف على ما قد يجمعها من الوحدة، وما يفصل بينها من زوايا التعددية والتنوع واللمح الفردى، فهى خلاصة تجليات الوجدان شريكا للعقل والأدوات بما يجعل من أدوات التشكيل الجمالى لغة مركبة يختلف حولها الباحثون، وقد تتسع حولها – أو تضيق – مساحة التلاقى أوالتباعد، بما يكفى للكشف عن خلاصة القراءات، وما يصحبها من اجتهادات وقناعات فى التطبيقات المنهجية.

فالأديب – بطبعه – ذاتى غيرى فى آن، ينطلق عبر دوائر تجاربه من الخاص إلى الوطنى إلى القومى، إلى الإنسانى الرحب؛ وفى كل منها يظل محتفظا بحرارة تجربته ودفء مشاعره، وفى أى منها – أيضا- يعكس خلاصة رؤاه الجدلية ومواقفه الخاصة فى سياق النسيج المجتمعى الذى يتعايش معه، وينطلق من إساره معبرا عنه فى إطار موزع بين صراعاته والتزامه، وفى صور من اتساقه أو رفضه وتمرده أو ثورته

أو تحدياته أو قبوله، وفى كل موقف تراه يثرى التجارب البشرية بعطاءاته وفلسفته، ويترك نتاجه موضوعا للباحثين بما يوسع أمامهم من دوائر الاختيار، ومساحات التحليل، وعرض الآراء والمواقف من خلال النظريات النقدية المتباينة.

هنا تبدأ أسس اختيار البحث الأدبى عبر عدة مستويات، ينبغى ألا تنسى على ساحة البحث :

أولها : قدرة البحث على إثارة مشكلة تصبح مصدرا للدراسة وبؤرة يدور حولها الباحث بالتأصيل والحوار والعرض المنهجى، بما يمثل إضافة جديدة تتجاوز المطروق إلى الجديد، وتعتمل حولها الأدوات والمنهج اعتمادا على آليات الذات، واستشارة الآخر عبر مصادره ومراجعه.

ومع الاختيار تتجلى معالم الاكتشاف الذاتى لشخصية الباحث، بدءا من التميز والقدرات، إلى استقلال الشخصية وتعميق الثقة بالنفس أو التبعية والنمطية، إلى الجسارة فى مناقشة المقروء ومساءلة الموروث ونقد الذات ومراجعة الفكر، إلى شجاعة المبادرة والعرض والمناقشة بين القبول أو الرفض أو التعديل أو الإضافة.

ثانيها : ترجمة تعددية القراءات المبدئية بين الاتجاهات القديمة والمعاصرة، وعبر المصادر والمراجع، وخلال المؤلف والمترجم، والعربى والاستشراقى إلى غيرها من دوافع التنوع فى تعميق الدراسة، وإبداء الرأى والوصول إلى النتائج، وهو ما يحسن أن يرتهن – أساسا – باختيار جزئية بحثية؛ لتعميقها فى دراسة رأسية أفضل من الاتساع فى الدرس الأفقى بما قد يدعو إلى التسطيح أوالتكرار.

ثالثها : يتعلق باتساع فروع ثقافة الباحث ومنهج قدرته على الوعى بموسوعية المعرفة، واستعداده للإلمام بالعلوم البينية والقراءات المشتركة بما تمثله من ضرورة بحثية، تتجاوز حد الترف والتزيد إلى الوعى الحقيقى بضرورات

القراءة فى العلوم المجتمعية والإنسانية والنفسية والتاريخية وغيرها من الفروع الداعمة – بطبيعتها – لمناهج الدرس النقدى، وتعميق مجالات الدراسة الأدبية.

رابعها : تكشفه مرحلة جمع المادة بدءا من انتقاء الإطار العام لها، وإلى التوقف عند المحاور والنصوص التى تتماشى مع موضوع البحث فى أبواب الاستشهاد، أو إعادة طرح المرويات على سبيل النقد والمفاضلة، أو إصدار الأحكام أو المراجعة، إلى رفض لغة التزيد المفتعل فى المادة المنقولة، أو الإفراط فى النقول بما قد يخفى شخصية الباحث، أو يقلص موقفه من التعبير عن الرؤية وتوظيف الأدوات .

خامسها : ينعكس فى القدرة العقلية المنظمة على ترتيب جزئيات القضية بشكل منطقى، والتدرج بين موادها وخطواتها بمنأى عن الإرباك الفكرى، أو خلط الأوراق أو اضطراب الجزئيات، أو اللجوء إلى الحشو أو الاعتماد على الاستطراد أو الإكثار من العبارات المجانية؛ مما قد يصرف الباحث عن عمق الموضوع ولب الدراسة إلى التوقف عند الهامش والمسطح غير المقبول.

مع هذه المستويات الخمسة، ومن واقع الحرص عليها يسير البحث فى خطواته الصحيحة عبر التسلسل المنطقى المحكم، إلى توظيف الأقيسة المنطقية، إلى الانضباط فى نسق المؤشرات الزمنية والمكانية والفنية، إلى احترام منطق الالتزام البحثى فى العناوين الكلية والفرعية، إلى توازن وتكامل الارتباط الذهنى بينها، بدءا من المقدمات حتى صياغة النتائج.

المبحث الثاني
موضـــوع البحـــث

هل لموضوع البحث مميزات وعيوب تقرب الباحث إليه، أو تنفره منه؟ وهل ثمة مجال للمفاضلة والانتقاء، بما يحقق أصالة العلاقة أو يحكم بضعفها بين الباحث وموضوعه؟

الأمر يحتاج وقفة متأنية هادئة بعد غزارة القراءة التى تدفع الباحث دفعا إلى اختيار موضوعه دون أن يصدر عن فراغ، أو أن يختار عشوائيا، أو أن يكتفى بالسماع والتوقع مما لا يكفى بحال لاختيار موضوع علمى، على أساس من الحدس أو الظن والتخمين.

ولعل اختيار الموضوع يظل رهنا بقدرات الباحث على دراسة الخريطة البحثية.. تلك التى قد ترشده إلى أهمية مشكلة الموضوع أو محوريته، سواء أكان الموضوع مدروسا من قبل ويحتاج إعادة معالجة على مستوى المنهج أم إعادة طرح أو إضافة وتجديد فى مادته العلمية كأن يكون الديوان قد حقق أو ما يشبه ذلك من فرضيات، أم كان الموضوع جديدا فى ميدانه وحقله التخصصى؛ الأمر الذى يظل مرهونا بوجود قاعدة معلومات لبحوثنا العلمية، يمكن أن تنطلق منها شرارة البحث العلمى بعيدا عن الارتجال وعشوائية الانتقاء.

ويحسن للباحث أن ينطلق من ظاهرة الاكتشاف الذاتى لموضوعه، سواء فى قراءاته الفردية أو الجماعية، والأفضل – بالطبع- أن ينطلق من مشاورات مع

الباحثين، ففى روح الفريق ما يفتح مجالات خصبة حول عدد من الموضوعات، ويسهل الجمع بين عدد من الخبرات، وفى النهاية تأتى متطلبات العودة إلى بيليوجرافيا الرسائل الجامعية فى شتى صورها وإصداراتها، ففيها ما يرشد إلى الاختيار ويضمن عدم التكرار، ويفتح أمام الباحث أبوابا يصعب أن يتعرفها بمفرده، ولعل المتاح منها فى بعض الجامعات يفى بالحاجة حتى استكمال قاعدة المعلومات.

ولا ينبغى أن يلجأ الباحث إلى اختيار موضوع بلا مرجعية مناسبة، وإلا حكم على نفسه بالتعثر أو التوقف، بل عليه أن يطمئن إلى صحة مساره من خلال غزارة المادة التى يمكنه أن ينطلق منها لينتهى إلى الحوار معها، والمناقشة حولها.

فالموضوع الجيد قد تتوافر فيه المراجع؛ ويظل قابلا للنقاش والإضافة، وهو ما يسهل مهمة تناغمه مع نفسية الباحث، إلى جانب تعزيز درجات ثقته فى مشرفه من حيث المشاركة الاستشارية فى مرحلة الانتقاء، تمهيدا لما وراءها من مراحل جمع المادة وإبداء الرأى فى مرحلة الكتابة.

وتكتمل سلامة الاختيار بقدر ارتسام حدود المنهج فى ذهن الباحث، وكذا ارتسام حدود الموضوع فى ضميره؛ مما يعكس درجة اندفاعه إليه، ويبرر تشبثه به ومن ثم كثرة القراءات حوله، مع الدقة والتأنى فى القراءة والمراجعة والحوار.

من هنا أيضا تتجدد الثقة، وتتحدد أبعاد مسئولية التواصل بقدر أهمية الموضوع مقرونة بجدية الباحث، وبقدر جدة الموضوع وخصوبة مادته، وما حوله من ملامح الدقة وصور الوضوح، وبيان المعالم والحدود؛ الأمر الذى يتجلى حتى فى عنوانه بما ينبغى أن يكون عليه من الصلاحية والجودة إلى ما يلى ذلك من خطوات البحث المتتابعة.

المبحث الثالث
البحث وخطوات المنهج

البحث ليس مجرد رغبة، أو طموح أو درجة علمية، ولا هو مجرد فكرة عارضة ولا مجرد حماس لاتجاه، ولا انفعال تجاه ظاهرة أو موقف، ولا انحياز لأديب، ولا انبهار بمبدع، ولكنه يتجاوز كل هذا إلى مفهوم آخر مختلف تماما.

فالبحث نزوع إلى تحرى الحقيقة، وبحث ما وراءها من أبعاد ودلالات، وتوجه إلى قراءة فرضيات وطرح مشكلات، وقدرة على المناقشة والجدل والحوار، واستجلاب الأدلة والشواهد والحجج والبراهين، ومحاولة المفاضلة على أساس من القرائية والنصية والموازنة قبل إصدار الأحكام.

والبحث – بهذا المفهوم – هو ممارسة عملية لفكرة المنهج وصولا إلى نتائج أو توصيات، أو برامج هادفة، تتعدد صورها وصيغها بقدر تعددية مجالات العلوم ومقاصدها ووسائلها وآليات العمل فيها.

ومن بدهيات الإقدام على البحث النزوع إلى التطبيق، ودراسة الشواهد، وتحرى الدقة والتمتع بالروية والأناة، ومعاودة النظر فى الأشياء والتمهل مع المرونة فى دراسة الآراء والأفكار قبل النزوع إلى إصدار الأحكام، مع الاستعداد للمراجعة ونقد الذات باعتبار طبيعة العلاقة بين المنهج والغاية فى علاقات الاحتمال والترجيح، لاسيما فى حقل العلوم الإنسانية بعيدا عن القطع وغائية الأحكام، مما يظل مرتهنا بصحة الخطوات ودقة المنهج ذاته وسلامة النتائج.

أما خطـوات المنـهج، فتبدأ من تحديد المشكلة مع القدرة على تحديد زاوية الرؤيـة، وتحديد الاتـجاه، وصياغة الفرضيات، وتصور الأدوات، وهى مرحلة مهمة وحاسمة فى عالم البحث والباحث من حيث طبيعة العلاقة التى تنشأ بينهما، والتى يجب أن تقوم على التوافق والتلاقى بما يدعو إلى تفانى الباحث فى استجلاء جوانب المشكلة العلمية، مع القدرة على التواصل معها تواصلا استقرائيا استقصائيا.

وثمة معايير وأسس يمكن إيجازها فى مرحلة الاختيار، منذ بدء تحديد أبعاد المشكلة البحثية، ومنها :

- التوجه إلى دراسة مشكلة غير مطروقة، تجنبا للنمطية والتكرار، ومحاذير الاجترار لما هو مستهلك، وتفاديا لإضاعة الوقت والجهد العلمى فى اتجاه رجعى قد لا يقدم ولا يؤخر فى مسارات العلم، وربما لا يضيف جديدا إلى حقل المعرفة الإنسانية.
- الاطمئنان إلى جدية الباحث فى موقفه من تحديد المشكلة، ثم قدرته على امتلاك الوسائل وأدوات المنهج، مع عمق التوجه العلمى للبحث عن حلول علمية وعملية، تتناسب مع طبيعة المشكلة وحجمها، وتسهم إسهامات فاعلة – منهجيا – فى حلها.
- تجنب الباحث الابتعاد عن جوهر الموضوع، أو الاستغراق فى الجزئيات المتناثرة، أو القضايا الهامشية، التى قد تفارق جوهر الموضوع، أو تنأى به عن محاوره الأصيلة، التى يتوقع بذل الجهد فيها وحولها؛ حتى لا يفلت منه الزمام عن الخط المنهجى المنضبط.
- تقدير درجة انشغال الباحث بالمشكلة، مع مستوى تمثله لها اتساقا مع مستواه المعرفى وتخصصه الدقيق وقراءاته البينية، مع تزكية قدراته اللغوية ومهاراته، وتقدير الثوابت والمتغيرات وتحديد التاريخى، والوصفى، والقديم والمعاصر.

وهو ما ينضبط فى حالة التوافق بين الميل الشخصى ودرجة التمثل ووضوح الرؤية وطبيعة الاستعداد .

- قدرة الباحث على اقتراح الحلول، وتحليل الفروض، وإدراك الحد الاصطلاحى بين المقترحات والآراء والمواقف، والفهم الواعى لمستوى المناقشة ولغة الجدل، مع القدرة على جمع المعلومات المتعلقة بلب المشكلة، وتتبع العلاقات المتجانسة أو المتناقضة بما يكشف مفتاح الصعوبة أو الانفراجة فى مسار البحث.
- اجتهاد الباحث ومثابرته، وحرصه على تعليل الظواهر طبقا لنوع دراسته بين الوصفية، والتاريخية، أو التحليلية، أو النصية، فلكل منها متطلبات تتجانس مع طبيعتها النوعية وتفى باحتياجاتها الحقيقية .
- ولعل ختام رحلة الباحث فى خطواته يرتهن بالحرص على الاستنباط وتوظيف القدرات والموضوعية بعد التدرج المنطقى والشمولية، إلى جانب جودة الصياغة، وصحة الترتيب، وسلامة السياق وانضباط تصاعد الجزئيات، واعتدال الأحكام وتوازن النتائج مع المقدمات.

وأخيرا تأتى العودة إلى الأصل فى درجة الوعى البحثى بمستويات تطبيق قواعد المنهـج ودراسة العلائق بين المناهج، مع التفرقة بين التلفيق بين عدد منها، أو التوفيق بين ما يتكامل ويتجانس إلى حد الضرورة، مع إمكانة التوقف عند مشكلات التطبيق، التى قد تبدو صارمة فى حقل الدراسات التجريبية، وتظل نظائرها نسبية ومفتوحة فى مجال العلوم الإنسانية، وخاصة منها حقل الدراسة الأدبية التى لا يحسن فيها الادعاء، أو الزعم بامتلاك الحقيقة المطلقة، أو المصادرة على الدراسات الأخرى، أو المزايدة على أى منها أو الانتقاص من شأنها لمجرد الانحياز الذاتى للباحث؛ فلكل دراسة مساحتها وحجمها ونتائجها، وخصوصيتها وتميزها أيا كانت مآخذ الباحث عليها.

المبحث الرابع
خطـــــة البحـــــث

يبدأ اختيار البحث من الطالب نفسه، ولا يستساغ أن يطرحه المشرف إلا فى حالة وجود قاعدة علمية واضحة للدراسات العليا فى فرع الدراسة الذى يسجل فيه الباحث، وعندئذ يلتزم بما يحدد له على مستوى التخصص الدقيق، مع ترك مساحة مناسبة للاختيار تتسق مع استعداده ومهاراته وقدراته.

من الضرورى أن تحاول الأقسام العلمية إعداد قواعد المعلومات بشكل استقصائى، يتيح للطلاب تعرف خريطة الرسائل من حيث الموضوعات التى درست، وما ينبغى أن يدرس منها، مع تحديد مداخل الأداء المنهجى بما يسهل للباحثين فرص الاختيار، حيث يتم عرض الموضوع على أعضاء القسم المختص والمشرف، وحين نقول الأعضاء – هنا – فهذا يعنى التمتع بالتعددية والتفكير الجمعى لأساتذة التخصص بدلا من العكوف على الصوت الواحد للإشراف، وهى مرحلة مبكرة قبل التهيؤ للندوة العلمية للقسم (السيمنار).

وعلى الباحث أن يجتهد فى دعم القراءات التراثية والعصرية معا، وألا يتعجل أمره فى تسجيل الموضوع إلا بعد اطمئنان كامل إلى عدم تكرار موضوعات درست إلا فى حالات الضرورة، التى تظهر فيها إضافات فى مصادر المادة العلمية (تحقيق ديوان مثلا)، أو تطور فى المناهج (من التاريخى إلى الأسلوبى على سبيل المثال). وعلى الدارس – أيضا – أن يكون دؤوبا فى قراءاته فهما ونقدا وتحليلا

ومراجعة، وأن يثابر على زيارة المكتبات فى مختلف الجامعات لإعداد التصور المبدئى للموضوع، وأن يكون على صلة قوية بأحدث الإصدارات العلمية فى تخصصه.

ومن المتوقع أن يقدم الباحث تخطيطا مبدئيا يطرح تصوره للموضوع، مع رصد خلاصة القراءات وضمانات المرجعية العلمية الصحيحة التى يتكئ عليها، وإعداد تقارير مفصلة عن الدراسات القريبة من مجال درسه، دون جنوح إلى نقد أو تجريح لأصحابها إلا فى حدود ما تقتضيه – بل تفرضه- أخلاقيات البحث العلمى، مع التركيز على بيان مجالات المفارقة ومساحات التجديد المتوقعة، والخصوصية التى تبرز له أثناء دراسة موضوعه.

تبدأ ورقة المقترح المبدئى للبحث من تحديد الطبيعة النوعية لمشكلة الدراسة؛ فالموضوع الجيد هو الذى يجيب عن تساؤلات مهمة لم تجب عنها الدراسات السابقة، وبقدر أهمية المشكلة، وبقدر تميز الأسئلة المطروحة تكون جدة الموضوع، ويكون تميزه، مع تحديد معالم المنهج الذى استوعبه الباحث وأجاد تمثله، ثم بيان درجة القناعة به، ودرجة اتساقه مع الموضوع ومبررات اختياره على حساب ترك مناهج أخرى ربما يظل بعضها عن هامش بحثه، وربما يغيب عنه تماما حسب طبيعة الدراسة.

يجب على الدارس أن ينطلق من وضوح رؤيته للأمرين معا : القضية موضوع الدراسة، المنهج المتبع بعيدا عن أى تشويش أو ضبابية أو خلط فى الأفكار، أو تلفيق فى المناهج، أو قصور فى التسلح بالأدوات.

ثم تأتى مرحلة تحديد طبيعة الموضوع، وتجزئة عناصره، وهو ما يعكس – أيضا – درجة وعى الباحث وتمثله لما يطرحه من حيث التماسك العلمى، والتدرج المنطقى والتلاحم المنهجى بين المباحث الجزئية وعبر الفصول والأبواب، وهو ما

يتجلى فى أنساق التبويب، وطبيعة التقسيم الداخلى المبدئى لتيسير العمل، ودعم رؤية الباحث، وهو مايجلى– أيضا – طبيعة وعيه وإدراكه لحدود " المصطلح " بدءا من مفهوم المقدمة باعتبارها آخر ما يكتب فى البحث، وأول ما يطلع عليه القارئ، بما يستوجب تركيزها على نقاط محددة : أسباب اختيار الموضوع، والدراسات السابقة، والمنهج المتبع، مع أهم المصادر والمراجع وتحديد الهدف من الدراسة .. ويحسن فى مقدمات الرسائل أن تنأى عن الإطناب والخطابية والإنشاء؛ لتبرز بشكل علمى هادف ومقنع وجاد وموجز، بما يطمئن إلى سلامة أدوات الدارس وأصالة الدرس وعمق المنهج.

ينطلق الباحث – أيضا – من إدراكه لمفهوم التمهيد إذا كانت له ضرورة تخدم الموضوع، أو الاستغناء عنه طبقا للطبيعة النوعية للموضوع ذاته، ثم عليه – بالضرورة – أن يكون فاهما وواعيا لقسمة البحث بين أبواب وفصول ومباحث جزئية وفقرات، ترتكز نتائجها على مقدماتها فى شكل متدرج ومتكامل ومنطقى.

وثمة محظورات فى مرحلة التسجيل يحسن للدارس معرفتها، وللمشرف تأكيدها، ومنها :

١- تجنب الباحث نقل خطط جاهزة؛ مما قد يفقده السيطرة على أدواته، أو على درجة إلمامه بجوانب الموضوع، فليس مطلوبا أن تتكرر الأبحاث فى سياق نمطى ربما لايضيف الجديد، وليس مطلوبا أيضا تكرار الخبرات، دون إضافات منهجية تحسب للباحث أكثر مما تحسب عليه.

٢- تأكيد قابلية الخطة المبدئية للتطوير والتعديل حسب مقتضيات المادة العلمية، وتبعا لطبيعة المنهج، واندفاعا مع مستوى القراءات والمناقشة والحوار وغزارة المادة العلمية وماتثيره من تساؤلات ومراجعات.

٣- تأكيد الدور التوجيهى للمشرف فى هذه المرحلة بما يضمن الجدية؛ حتى لا يجنى على البحث أو الباحث ضمانا للتواصل وعدم الانقطاع المعرفى، أو

النقـص المرجعى، أو القصور فى جمع المادة بالشكل المناسب للاستقراء المنهجى.

٤- وجوب احتفاظ الباحث بالخطة المبدئية، واصطحابه لها فى المكتبات المختلفة، مع رسوخها فى ذاكرته وسهولة استدعائها؛ مما يزيد من درجة تمثله لها، أو إضافته إليها، أو تعديله فيها، وهو ما يسهل له البحث فى مصادره ومراجعه من قبيل الاستقصاء بالشكل المناسب.

obeikandl.com

المبحث الخامس
مصـــادر البحث ومراجعـــه

من الأهمية بمكان – مبدئيا – الانطلاق من دقة المرجعية التى يستند إليها الدارس فى جمع مادته العلمية من مظانها الرئيسة التى يبدأ منها ليبنى على أساسه أحكامه ويطرح رؤاه وتحليلاته، ومن ثم يبنى على أساس منها نتائج بحثه؛ الأمر الذى يدفع إلى حتمية احترام دقة الاختيار لكل من المصدر والمرجع، مع الاستعداد الواعى لتقييم أى منها – أى المصادر والمراجع – من خلال ما دار حولها من دراسات، أو من خلال خبرات الدارس نفسه.

وبداية، يجب على الباحث أن يؤصل رؤيته وقراءاته حول الخط المنهجى لمصادرنا التراثية عبر تصانيفها المتعددة من تاريخية وغيرها، ويجب عليه الإلمام بالمكتبة العربية التى يمكن أن يتعامل معها – ومن خلالها – بعيدا عن الارتجال أو العشوائية، وبعيدا أيضا عن الاكتفاء بالمراجع الوسيطة، أو إهمال التعامل مع المصادر الكبرى القديمة.

والمصدر هو الوعاء الأصيل للمادة العلمية للباحث؛ حيث يحتوى على الأخبار أو النصوص، وغالبا ما يطلق على القديم، وفى بعض الآراء لايهم القدم أو الحداثة طالما أنه يحتوى على هذه المادة التاريخية أو النصية؛ فكل دواوين شعرائنا المعاصرين تحسب مصادر بهذا المفهوم، أما مؤلفات المؤرخين المعتمدة على أخبار منقولة من مصادرنا التاريخية من قبيل العرض، أو التحليل أوالتعليل أو النقد أو الإفادة فهى

مراجع وليست مصادر. والمرجع يسأل عنه مؤلفه على مستوى المنهج والفكر وطرح الآراء بما يقبل المراجعة والمساءلة والمناقشة؛ لأن المرجع مؤلف للقراء وجمهور الدارسين وطالبى المعرفة، وهو حصيلة فكر مؤلفه مضافا إلى محتواه عبر تعددية أفكار الآخرين وآرائهم التى انتهوا إليها، ومن حصيلة المادة التى استقاها من مصادره التاريخية أو النصية. يبدأ الباحث علاقته بالمكتبة من خلال استقراء فهارسها وتحديد أهم المصادر التى تلتصق بموضوعه، وهى مسألة ينبغى التوسع فيها، فكلما ازدادت علاقة الباحث بمصادره حميمية، أجاد الفهم والمناقشة والتحليل.

ويبدو اختيار المصدر المحقق أمرا مهما وضروريا، فليس من المنطقى ولا المطلوب العودة إلى مصادر مجهولة الهوية، دون تحقيق علمى منهجى، وبالتالى يبدو اعتماد الخبرة هنا مدخلا مهما للاختيار والانتقاء، لاسيما حين يلتقى الطالب بعدد من الطبعات المحققة وغير المحققة فى المراجع الوسيطة، بما يستدعى أن يحدد لنفسه موقفا واضحا من أكثرها أصالة وأدقها تحقيقا.

ويحسن للباحث أن يسجل المعلومات عن المصدر من حيث: سنة النشر، وجهة النشر، وعدد الأجزاء، ومكان النشر، واسم المؤلف كاملا، واسم المحقق، كما يدون ما ينقله منه على مستوى الجزء والصفحة.

ولا مانع – بالطبع- من عودة الباحث إلى المخطوطات فى حالة عدم نشرها أو تحقيقها، وتعامله مع المخطوطات يحتاج خبرة ودراية؛ خاصة حين يستدعى خلالها ما سبق أن درسه فى تحقيق المخطوطات والتعرف على نسخها، وإمكانة العودة إلى أفضلها وسبل تصويرها، ووجوب الإشارة إليها.

من الواجب أيضا مراعاة الترتيب الزمنى للمصادر فى فترة جمع المادة؛ حتى يسهل على الباحث أن يبنى آراء المتأخرين على نسق ما سبقهم، لتظل المرجعية آمنة

غير مضطربة، وهو ما قد يتعارض مع الترتيب الأخير فى ثبت المصادر على الترتيب "الألفبائي" سواء بالنسبة لأسماء المؤلفين، أو موضوع المصدر ذاته.

كما يبقى المرجع الوسيط فى حاجة إلى تعامل دقيق من جانب الدراس، حيث يستمد منه مادته ليناقش ويحلل وينقد، دون أن يعنى هذا الاكتفاء بالمرويات المنقولة عن المصادر من خلاله، حيث يظل واجبا العودة إلى المصدر وتحديد طبعته بما يضمن صدق المرجعية، ويحسن – هنا – ألا تتعدد الطبعات للمصدر الواحد؛ حتى لا يشتت الباحث نفسه أو قارئه إذا ما قصد إلى الفحص أو المناقشة أو المراجعة.

وتظل تعددية المراجع واردة فى دراسات الاستشراق، التى يجب أن يرجع إليها الدارس من قبيل إثراء بحثه، وعندئذ عليه أن يتوخى الدقة فى معالجة القضايا المطروحة، إما من باب الموضوعية أو تدخل الرؤى الشخصية، أو الجنوح – أحيانا- إلى تغييب الانطباع والنزعات التأثرية مما يؤثر – بالطبع - على سلامة الأداء المنهجى. ومع هذا يظل من الأهمية بمكان الاطلاع على آراء المستشرقين، وتأسيس القدرة على المناقشة الموضوعية الهادئة بعيدا عن التعصب أو الانفعال أو المزايدة أو التباهى بإنجازات الماضوية فحسب.

وقريب من دراسات الاستشراق، تأتى الكتب المترجمة بما تطرحه من الأفكار والآراء وصيغ التحليل المنهجى التى يبدو التعامل معها ومن خلالها ضرورة أخرى لإثراء الفكر الذى يتطلب العودة حتى إلى الأصول بما يستدعى إجادة اللغات الأجنبية بالشكل المناسب للترجمة، واختراق المصطلح النقدى أو الأدبى.

وتتعدد مستويات الترجمة تبعا لمستوى المترجمين وإلمامهم بمصطلحات التخصص العلمى، وهنا تأتى جرأة الباحث على التعديل فى الترجمة أو تقييم مستواها، وربما وجد من الأفضل العودة إلى الأصل فى بعضها، أو إعادة ترجمة البعض إذا امتلك القدرة على ذلك.

ثم تبقى قاعة الرسائل الجامعية فى توقع دائم لأن يتعامل الباحث مع مجموعة الرسائل ذات الصلة بموضوعه، وهو ما يخضع لتعليمات المكتبة وقطاع الدراسات العليا والبحوث، وما يرتهن – أيضا – بدور المشرفين والباحثين فى مستوى التعامل مع تلك الرسائل بضمانات الأمانة العلمية الكافية، والكفيلة بتكوين باحث متمكن ومتميز مؤتمن على احترام حقوق الملكية الفكرية لزملائه وأساتذته.

أما قاعة الدوريات.. فمن واجب طالب البحث أن يتعامل جيدا مع موادها الفكرية بما تحكيه من عطاءات جادة، أفرزها عصر العمالقة والمشاكسات النقدية والجدل والمناقشات، التى سجلتها لغة الحوار فى ظل تعددية المناهج والمدارس لدى جيل الرواد.

وتبقى قاعة الرسائل الجامعية موضعا لأخلاقيات البحث والباحث، بما تتطلبه من الأمانة والدقة التى تتأبى الوقوع فى دائرة السرقات أو التفريط فى حقوق الملكية الفكرية؛ باعتبارها صمام الأمن فى البحث العلمى.

obeikandl.com